www.alukah.net
شبكة الألوكة

د.امحمد دراوي ،دكتوراه في التاريخ ، جامعة خميس مليانة،الجزائر

خاطرة
مع إبن خلدون.... في حجري

جاء وباء "كورونا" ومعه حبست الأنفاس وتقطعت السبل بالناس ،فهو وباء شديد الانتشار بالغ الآثار ظهر في بلاد الصين ثم ما لبث أن تمدد في جل الأقطار والأمصار عبر البحار والقفار مخلفا الهلاك والدمار،وقد اعجز المخابر وأعيى الأطباء في كنهه ومنتهاه ، واخلط أوراق الساسة والحكام، وخشي غاشيته أرباب المصانع ورجال المال و الأعمال ،وتاهت من سطوته العامة والدهماء ،فادلهمت عليهم خطوبه وسبل الوقاية منه ، فذهبوا في تفسيره كل راي و مذهب ، وأفضى بهم الحال إلى تطبيق الحجر والانزواء،ونظافة الأبدان والأجواء ،فاجتهدت الحكومات والهيئات في تطبيقها وسعت في تجسيدها لوقف انتشاره والتقليل من آثاره و أخطاره .

لملمت حاجاتي من مقر عملي كغيري من الزملاء وغادرت المقر، وأغلقت مكتبي وعزمت أمري، فلزمت حجري ب"البليدة" من ارض الجزائر، وفيها للوباء بؤر ، وليس بي عهد سابق بالحجر ،فاضطرب حالي واختل ميزان حياتي ،ولم أجد لي من مواساة أكثر من مقارعة الكتب ومطالعة أعمال الفلاسفة والتاريخ وأهل الأدب . فلعمري انه خير الزاد وأفضل الجلساء، انهل من بساتين المعرفة صنوفا من الحكمة وفصل الخطاب.واني عزمت ان ابتدأ بأمهات الكتب في الفكر والتاريخ وهي مادتي وسبيل عيشي .فوقع اختياري على كتاب "**مقدمة** "ابن خلدون " فهو كتاب لا غنى عنه لمؤرخ صنديد ولا لفيلسوف نحرير،وقد جمع مادته من وقائع التاريخ وحكمة الفلسفة ،وقد كنت مررت عليه مرور الكرام في ما مضى من العمر ،فعزمت على استيفاءه والتبحر في فصوله ومباحثه ،فصُلت وجُلت بين دفَاته وثناياه ،متبحِرا بين موضوعاته وقضاياه ،ملتمسا منه علاجا لحال الأمة في آخر الزمان .

والكتاب حقا فريد في موضوعه قوي في تحليله، ولا أخال أن أحدا سبقه إلى مادَته. لا غنى عنه للمتأخِرين من أهل النظر لمعرفة أحوال الأمم والشعوب، في تقلباتها بين القوة والضعف والرخاء والشدة والسيادة والخسف ،ولتتبع أحوال العمران البشري والتحول

شبكة الألوكة - قسم الكتب

الحضاري الذي هو قانون الله في البشر وسنته الأزلية في خلقه .ألم يصفه صاحبه بقوله :"واعلم ان الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة ،غريب النزعة،غزير الفائدة ...وكأنه علم مستنبط النشأة ،ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة ".

أخذتني نشوة القراءة وشهوة الاستمتاع بمضامين الكتاب ، وتأمل حكمه العجيبة كل مأخذ ،فاتصل ليلي بنهاري ،وواقعي بخيالي حتى رأيتني ذات ليلة وقد استدعيت صاحبه في منامي ،وكان ذاك مبتغاي ومرادي، فجلست إليه أحدثه ،وكالتلميذ اللهفان أسألُه، أتدبر في حكمِه واستأنس بنصائحه فلم يزل بي هذا الحال حتى أفقت وكان بيني وبينه ما كان من عذب الكلام وفصل الخطاب في مسائل السياسة والاقتصاد والأخلاق ومقتضيات العمران البشري ،واني ناقل لكم ما جرى ولله الحكم والمنة .

أتاني بهي الطلعة وقد بدت عليه مظاهر الأبهة وملامح الوقار ،كيف لا وهو علم زمانه ووحيد عصره في صنوف المعرفة ،صاحب التآليف والتصانيف العجيبة في علوم الفلك والحساب والتاريخ وعلم الاجتماع ،وهو قاضي قضاة المالكية بالديار المصرية بلا منازع ،الوزير المحنَّك في بلاطات المغرب والأندلس ،تقلب في دهاليزها ما شاء ،واستأنس بسديد رأيه جهابذة بني حفص وبني زيان وبني مرين ،وانتدبه أبي عنان وحكام الأندلس لحل مشاكلهم والفصل في اتفاقاتهم وخصوماتهم.

بعد التحية والسلام بادرني هو بالسؤال :ماذا دهاك يا فتى وقد دعوتني من رقادي وقد خلت القرون من بعدي ؟

أخبرته بالقصة التي رويتها لكم فقلت: يا ابازيد : إني كنت في حَجري بسبب الوباء الذي المَّ بالبلاد والعباد ، وقد ضاقت بي السبل وتاهت بي في كل واد ، فعكفت على ما كتبت في "مقدمتك" أيما عكاف ، فتاهت نفسي بين دفاتها حتى غادرت عالمها الحسي واتصل حاضري بماضي ، فكان ما ترى من حصول المراد بمجالستك ،والحديث إلى حضرتك والاستئناس بآرائك وحِكمك ،ابلغها للناس لعلهم منها يعتبرون وبها يهتدون .

قال: لكنني من زمان غير زمانكم ،ولكل عصر شأنه وتقلباته لا يفقهها إلا أهله .

قلت : لكن يا شيخنا لا يستقيم حال الحاضر إلا بالماضي ،ولا نستشرف ما هو آت إلا بالقياس للحاضر ،ألست القائل :"... ان فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم الفائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا "،وقد أصبت مرادك من هذا الفن ،إذ لا يزال الناس ينهلون من معين فكرك وعظيم فوائدك ،وما أحوج الناس في أيامنا إلى رجل يفري فريك ، يجمع بين حكمة الفلسفة والتاريخ وتقلبات السياسة والحضارة فيستخلص لنا منها ما يرشد الناس إلى تقفي سبل الرشاد والخلاص.

قال:أبلغت المقدمة كل هذا المبلغ ؟

قلت بلى .

قال: الحمد لله الذي استجاب دعائي وبلغني مرادي و غايتي مما تحريت وكتبت ، فالمقدمة عصارة جهد وخلاصة تجربة في الحياة، فإني "بعد أن استوفيت علاجه ،وأنرت مشكاته للمستبصرين وأذكيت سراجه وأوضحت بين العلوم طريقه ومنهاجه وأوسعت في فضاء المعارف نطاقه ..." وقد رحلت عن عالم الناس ولم أتوقع أن يبلغ ما بلغ. فاخبرني هداك الله عما حل بالناس بعد عصري ؟

قلت : اعلم أيها الشيخ الجليل أنا قد نكصنا على أعقابنا من بعدك وأصابنا الوهن وضعفت العرى واشتدت الخطوب ،فسقطت بلاد المسلمين تباعا في أيدي النصارى ، وكانت أولى البلاد سقوطا بلاد الأندلس باستيلائهم على آخر ممالكها على عهد بني الأحمر والتي استوزرت فيها ،فخرجت تلك الربوع من حوزة المسلمين إلى الأبد، وخرج منها أهلها من المسلمين مذلون مهانون يتعقبهم النصارى في شعب الجبال وعرض البحار تقتيلا وتنكيلا ،ولم يشف ذلك غليلهم فاتبعوهم إلى ارض المغرب ،فاستولى الإسبان والبرتغال على سواحلنا على امتداد البحر ،وأثخنوا في المغرب وأهله تشفيا وانتقاما ،فكانوا على ذلك حتى قدم الأتراك من بني عثمان وقد صار إليهم أمر المسلمين ، فبسطوا سلطانهم على عالم الإسلام وصيروه إلى قيادتهم بالقوة أو بالنجدة ،فكان لهم ما كان من فضل الحماية والمنعة من تسلط الأوربيين المتربصين حينا من الدهر ، ولم يزيدوا على ذلك فقد أذنت شمس الأمة إلى الزوال .

والحق ان ذلك الجيل –الذي سمى عصره بعصر -ما بعد الموحدين-قد فقد دفعته الإيمانية التي حركت أسلافه وخلد إلى الدعة والترف لياليه وأيامه ،فاستسلم للخمول حتى لفه الدهر بردائه ،ولم يستفق إلا وقد فقد زمام أموره وصار في قبضة أعداءه ،فاستحوذ الاستعمار الغربي على دياره واحكم قبضته على جل أمصاره وأقطاره.

وقد كان الاستعمار شرا مستطيرا ،استحكم بالأوطان وانتهك الأعراض وسلب الثروات والأموال ،وصير الأعيان اقيال ،فعطل الشرائع وأغلق المحاكم ، واحكم فينا شرائعه ،وسامنا الخسف بسياسته ،فعم الجهل وغاب العدل واستوطن الفساد والاستبداد ،مستعينا ببطانة منا لا يالوننا خبالا .

تنهد الشيخ بحسرة ،ثم قال :اعلم أن الأيام دول ،ولسياسة الملك وعمران البشر سنن ، من فقه كنهها نجا وسلم ومن نكب عنها ضل و هلك .واني اجتهدت قدري في استنباط تلك القوانين وإسقاطها على وقائع التاريخ وتجارب الأمم والممالك .

قلت : بلى يا أبا زيد قد فعلت ووفيت ،لكن لات حين مناص .فقد "بلغ العالم الإسلامي من التضعضع أعظم مبلغ ومن التدني والانحطاط أعمق دركة ،فاربد جوه وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه ".

وكنا على ذلك حتى لاح شعاع الفجر في الأفق واستفاقت الأمة بعد طول سبات، ونهضت النفوس والهمم بعد ممات ، فطفق أهل الإصلاح والتحرير شرقا وغربا في البحث عن مكامن الخلل وسبل الخلاص من العلل ،فقال قائلهم عن أدواءه المستعصية: "**وجدت أثقل أدواءه داء انقسام أهله وتشتّت آراءهم واختلافهم على الاتحّاد و اتحّادهم على الاختلاف".**

ولإن تحررت الأوطان فإنها لم تتحرر الأبدان ،ولان حصلنا الاستقلال فإنه لم ينته الاستغلال ،ربطنا الغرب بحبال التبعية إليه والانقياد لأوامره ونواهيه ،فصار حالنا حال المغلوب " المولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده". واصابنا الوهن "لما حصل في النفوس من التكاسل إذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم ....."، وعلى حد قول القائل "تبا لأمة لا تأكل مما لا نتتج ولا تلبس مما لا تنسج" .

ولم انه الكلام مع الشيخ حتى بادرني بالقول :"اعلم ايها السائل ان الظلم مؤذن بزوال النعم وخراب عمران الأمم ،وان نظام العالم سار في كل الأحوال والعاقبة للمتقين .

ثم أردف قائلا : اخبرني كيف حصل لكم الوباء وبلادكم واسعة وهواؤكم نظيف؟

قلت: يا شيخنا لقد تبدلت الأحوال واتسع العمران وعجت الأرض بالساكنة و تقاربت الأمم والدول،فصارت أشبه بالقرية المتقاربة المعمور، المتصلة الأحوال بالخير والشرور ، فالمسير من الجزائر إلى بلاد الصين-البعيدة- لا يتجاوز عشر ساعات بالطيران في زماننا ،وهي بعيدة عنا بآلاف الأميال ،أما الأخبار فهي متصلة في كل حين بلا حبال .

ذهل الشيخ لكلامي ولم يكد يستسيغ مقالتي لما وجد فيها من الغرابة ،وعهده بالعالم ما نقله الإدريسي وجاء في كتب الرحالة وما وجد من مشقة السفر بين الأمصار .

وختمنا الكلام عن الوباء المستجد ،وعن اسبابه ومدى انتشاره وحول ما كتب في موضوعه فقلت : والله يا ابازيد لا يكاد يخرج الأمر الحاضر عما وصفت في الماضي مع بعض التعقيد ،فالوباء الحاصل عندنا يقولون ان مصدره مدينة من بلاد الصين تسمى "**ووهان**" وواقعة ضمن إقليم يدعى "**خوباي**"وهي مدينة يسكنها أكثر من خمسة عشر مليونا من البشر في عمارات عالية متجاورة وبها سوق كبيرة تباع فيه أصناف كثيرة من الدواجن والقطط والكلاب وحتى الخفافيش ...وما لا تسيغه النفس وتنفر منه الأذواق السليمة ، ومنها خرج واستحكم في جل الأمصار وفتك بكبار السن وأصحاب العاهات والأمراض .

فربما كان ذلك ادعى لتلوث الهواء وتسممه وتكون بؤر الوباء وانتقالها للناس كالنار في الهشيم ، واني نظرت في قولك:"وسببه –أي الوباء- في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة ..."وفي قولك "فإذا كان الفساد قويا وقع المرض في الرئة ،وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة " ثم نظرت الى تقارير الأطباء في عصرنا فرايته قريبا منه في التمثيل ،فان أكثر البلاد تضررا من الوباء المدن الكبيرة والأحياء المزدحمة القليلة الهواء كميلانو من بلاد الطليان ونيويورك من ارض أمريكا ... ولا ندرى منتهاه والله هو اللطيف الخبير.

البليدة في 2020/06/11